المحاضرة الأولى
النقد الأدبي العربي في أواخر القرن الثاني

يعد القرن الثاني الهجري مرحلة انتقال بين الشفوية والتدوين، حيث شهد تأليف أول كتاب نقدي في تاريخ النقد العربي ، وهو كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي. ولأن التدوين داعية إلى قدر من التعمق والتفصيل، فقد شهد النقد في أواخر هذا القرن قدرا من التطور هيّأ لظهور مؤلفات نقدية سارت بالنقد أشواطا متدرجة في طريق النضج والاحتراف.

ويمكن القول إن النقد في ذلك العصر حافظ على كثير مما كان اعتراه من الجزئية والانطباعية؛ فلم يكن يتناول قضايا الشعر بالتفصيل الذي صار إليه في القرن الثالث، بل كان يطلق الأحكام العامة بشأن بيت من الشعر أو معنى من المعاني أو شاعر من الشعراء مستحضرا جملة من القواعد الذوقية الفنية أو الاجتماعية أو النفسية أو الأخلاقية، من قبيل ما سمّاه إحسان عباس "مبدأ اللياقة"[1]؛ وهو أن يتناول الشاعر معنى لا يخالف ما تقتضيه اللياقة الأدبية من مقابلة الفعل بما يناسبه، على نحو ما جرى مع بيت الشمّاخ مخاطبا ناقته:

إذا بلَّغتِني وحملتِ رَحْلي عرابةُ فاشرقي بدم الوتينِ

إذ عيب على الشاعر مخالفته اللياقة الأدبية، بمقابلته إحسان الناقة إليه بالإساءة إليها. وبناء على هذا المبدأ نفسه عيب على طرفة قوله:

فإذا ما شربوها وانتشوا وهبوا كلَّ أَمونٍ وطِمِرْ

لدلالة البيت على أن كرمهم يكون لحظة سكرهم دون صحوهم، وهي صفة لا دلالةَ فيها على ما يُحمد عليه الرجال من فضيلة السخاء.

وكذلك مبدأ "الجودة المثالية"[2]، حيث يفضل الذوق الشعري في ذلك العهد أن يبلغ الشاعر من وصفه إذا وصف صفةً ما أن يبلغ بها أقصى ما يُطلب ولو خالف الواقع. وعلى هذا الأساس عابوا على الشاعر وصفه فرسه بأن شعره مسترسل على جبينه، لأنهم يرون أن الفرس إذا كان كذلك لم يكن كريما.

ويُلحق بهذين المبدأين قاعدة "الاستواء النفسي"، وهي "أن يظل الشاعر ملتزما بمستوى واحد من النظرة إلى الحياة وقيمها؛ فامرؤ القيس متسق الشعور مع حاله –وهو ابن ملِك وطالب مجد- حين يقول:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب كثيرا من المالِ
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يُدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي

ويتطلب الناقد منه أن يظل ملتزما بهذا المستوى من الشعور بالذات وبقيمة الغاية، ولذلك فإن الناقد يراه قد هوى من قمة عليائه، أو أصبح على حد تعبيره "نذلا" حين يقول:

لنا غنمٌ نسوَّقها غِزارٌ كأنَّ قرونَ جلّتها العصيُّ
فتملأ بيتنا أقطا وسمْنًا وحسبُكَ من غنى شِبَعٌ ورِيُّ

وهذا القانون الصارم يجهل تقلّب الحال النفسية، وينكر أن يكون شعر الشاعر متفاوتا بحسب تلك الحال."[3]

---

[1] إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت،ط4، 1404ه-1983م، ص45.
[2] المرجع نفسه، ص46.
[3] المرجع السابق، ص48-49.

وفي هذا العصر أسس الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض مستثمرا ما في البيئة البدوية من قيم وعادات وأدوات في وضع مصطلحات جديدة لهذا العلم الجديد تؤثث بيتَ الشِّعر بألفاظ من بيت الشَّعر (الخباء).

غير أن أهم حدث نقدي وقع في هذا العصر وخطا به النقد خطوة في طريق التدوين والتمكين هو تأليف الأصمعي (216-123ه) كتابه "فحولة الشعراء" الذي تضمن تصورا ناضجا لمفهوم الإجادة الشعرية معبَّرا عنه بمصطلح "الفحولة". فقد أورد الأصمعي في سياق تحديد لصفات الشاعر الفحل جملة معايير تعد ضربا من التأصيل لجودة الشعر وقوة الشاعر في مستواهما المثالي. وقد تضمن الكتاب عرَضا قضايا نقدية أخرى ذات أهمية مستمرة في فهم الظاهرة الشعرية وتقدير صلتها بالحياة، مثل علاقة الشعر بالدين، وبجدلية الخير والشر.

ويمكن أن نحصر أهم القضايا التي تضمنها هذا الكتاب فيما يأتي:

1.فصل الشعر عن الدين: وقد ورد هذا المبدأ في سياق تحديد معيار الفحولة؛ إذ نفى الأصمعي صفة الفحولة عن لبيد بن ربيعة، بسبب مضامينه الدينية التي لزمت شعره بعد إسلامه، حيث قال فيه: "شعر لبيد كأنه طيلسان طبريّ، يعني أنه جيد الصنعة وليس له حلاوة". كما قال عن شعر حسان بن ثابت: "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان؛ ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير –من مراثي النبي (ص) وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما- لان شعره. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان."[1]

ويعني "اللين" حسب إحسان عباس ما يقابل شدة الأَسْر، كما يعني "الخير" طلب الثواب الأخروي لا ما يقابل "الشر"؛ بما يعني أن الشعر يُعنى بطبيعته شأن دنيوي "يتصل بالصراع الإنساني في هذه الحياة"[2]. وهو رأي ينأى بالمقولة الأصمعية عن فكرة التعارض بين الشعر والخير بمفهومه المطلق.

والذي نذهب إليه في تفسير هذا الموقف أن "أن الشرط الضامن لحلاوة الشعر وجودته ولطف مدخله إلى القلب هو أن يتناول من المعاني والأغراض ما للقلوب علوق به وللنفوس ارتياح إليه وللطبائع اهتزاز له واستئناس به، وأن يكون مبعثه الانفعال والتجربة ومصدره القلب أي العاطفة، وليس العقل الواعي والفكر الجاف والصدق الصريح المباشر. وهو ما يعني أن شعر حسان الإسلامي– إذا صح أن يحكم عليه بالضعف- لم يقتبس من حرارة الانفعال بالتجربة ما يكفي لبث الحرارة في حناياه، ولم يتضمن من المعاني اللائطة بالنفوس ما يكفي لحملها على استجلائه والإحساس بما ينتظر من الشعر عادة من المتعة والطرب، وهذا الإحساس قد يستجيب لداعي الشر أكثر من استجابته لداعي الخير والدين، باعتبار أن النفوس ميالة إلى الشهوات نزاعة إلى ما يريحها ويمتعها ولو كان عاقبته المرارة والشقاء، بينما يدعو الدين إلى مجاهدة النفس وقمع الشهوة الحرام والتزام ما عاقبته السرور ولو كان مرّا شديدا على النفس، ولكن هذا لا يعني صحة ما ذهب إليه الأصمعي، فإن للنفوس ميلا كذلك إلى ما هو خير وحق، ولها طرب واهتزاز لما يوافق نزوعها إلى إدراك الحقائق وبلوغ مراتب التفوق والكمال بألوان المكارم والفضائل الشعورية والسلوكية، ولعل أكثر الشعر الخالد الذي ما زال يهزنا ويثير إحساسنا بالجمال النفيس، هو ما تضمن هذه الحقائق والأحاسيس؛ وإذا أخذنا المتنبي مثالا فإننا نجد أكثر شعره الجيد في باب الخير والحق، وهو ما يثبت ضعف مقولة الأصمعي، ولعل حقها أن تقوّم لتصير:

---

[1] المرزباني، الموشح، تحقيق علي محمد. البجاوي، القاهرة 1965ص90،

[2] إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، ص51.

"الشعر انفعال وطبع، بابه القلب، فإذا دخل في باب العقل لان"[1]..

2.معايير الفحولة: مصطلح الفحولة مجتلبٌ إلى النقد الأدبي من حقل الحياة البدوية فيما تعتمد عليه من الأنعام، وتحديدا من الجمل. فالفحل الجمل الذكر المكتمل القوة. وقد سئل الأصمعي عن الفحل من الشعراء فكان جوابة: "له مزية على غيره كمزية الفحل على الحِقاق" (والحقاق: هو الذي استكمل ثلاث سنوات).

والشعراء عند الأصمعي فحول وغير فحول. والفحل من الشعراء ليس من اقتدر على الإجادة فحسب، بل من توافرت له جملة شروط. وقد ورد في الموشح: "قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن الأعشى أحلٌ هو؟ قال: ليس بفحل. وقال: سألت الأصمعي عن مهلهل، قال: ليس بفحل، ولو قال مثل قوله: "أليلتنا بذي حسم أنيري" خمس قصائد لكان أفحلهم." ثم سئل عن عدد من الشعراء فنفى عنهم الفحولة. إلى أن سئل عن كعب بن سعد الغنوي فكان جوابه: ليس من الفحول إلا في المرثية فإنه ليس مثلها في الدنيا. وسئل عن الأسود بن يعفر النهشلي فقال: يشبه الفحول. وعن أوس بن مغراء الهجيمي فقال: لو كان قال عشرين قصيدة للحق بالفحول، ولكنه قُطِع به.

ويستنتج من هذه الأحكام أن الفحولة لدى الأصمعي منزلة عالية لا يبلغها من الشعراء إلا القليل. وأن شروطها نوعية وكمية. فالشاعر الفحل من تغلب عليه صفة الشعر، ومن يكون قويا في عدد وافر من الأغراض والقصائد الشعرية، ومن يكون له تميز وسبق في أساليبه التعبيرية لاسيما التشبيه، ومن يؤثر في غيره ويتبعه الشعراء.

وقد شهدت أواخر القرن الثاني عناية ثلة من العلماء واللغويين بدراسة القرآن الكريم من جهة اللغة والبلاغة؛ فألّف الفراء أبو عبيدة (ت 207ه) كتاب "معاني القرآن" متناولا فيه جملة من الجوانب البلاغية مثل تأويل العبارات، والتقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، والتشبيه والكناية والاستعارة. وألف معمر بن المثنى (ت 208ه) كتاب "مجاز القرآن" دون أن يقصد بالمجاز ما يقابل الحقيقة، بل قصد به دلالة الآية. وقاده ذلك إلى تناول ما في الآيات القرآنية من أساليب بيانية وتركيبية. وكل ذلك وفر مادّة أولية تطبيقية أفاد منها النقد الأدبي العربي في قرونه اللاحقة.

---

[1] عبد الملك بومنجل، جدل الثابت والمتغير في النقد العربي الحديث، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، 2010، ج2، ص193.